

وكان صوتٌ آخر ينبعث من بعض غرفات الدار منشداً:

إذا ما أراد الغزو لم تثن همُّه حصانٌ^٢ عليها نظمٌ دُرٌّ يزينها
نهته، فلما لم تر النَّهْيَ عاقه بكت فبكى مما شجاها قطينها^٣

ووضع الفتى ما كان بين يديه، ورفع رأسه مُنصِتاً، ودلفت الجدة الثكلى إلى حيث كانت أمُّ نوار جالسة تُدندن ذلك الشعر، فقالت لها عاتبة: عهدكِ بالغناء بعيد يا أم بشير، فهلأ أشفقت اليوم على الصبي والصبية أن يسمعا غناءكِ هذا؟
قالت أم بشير ولم ترفع إلى العجوز عينين: لقد كان ذلك والله أحبَّ الشعر إلى عتبة حين يُزَمِّع رحله!
قالت الجدة، وهي منصرفةٌ قد ضاقت نفسها بما سمعت من جواب: فقد رحل عتبة، ولم يُعد.
وسكن الصوت، فعاد الفتى يُنشد وهو يعالج أحماله:

وأُشفقُ من وَشكِ الفراق ...

وخَفَّتْ إليه نوار معجلةٌ قد سوَّت ثيابها، وجَفَّتْ دموعاً في عينيها، ثم استقبلته قائلة، وقد اصطنعت الابتسام والمرح: ماذا سمعت من إنشادكِ يا عتيبة؟ هلأ كان قولُكِ لنفسكِ:

أشوقاً ولَمَّا تمض بي غيرُ ليلةٍ فكيف إذا حَبَّ المَطيُّ بنا عَشراً؟

قال، وقد مدَّ يدين إلى يدين، والتقت عينان بعينين: بالله أعيدي يا نوار؛ فقد وقَّعت على ما كان يهجسُ في نفسي، ولا تلفظه شفتاي.

^٢ الحصان: المرأة المحصنة الشريفة.

^٣ القطين: الخدم والأهل.